الصورة الفنية في سورة مريم. _قصة زكريا أنموذج_

قراءة صوتية دلالية.

يمينة مصطفاي

جامعة البويرة

الملخص: يأتي هذا الموضوع في إطار سلسلة مجموعة دراسات قرآنية تطبيقية حول دلالة الأصوات في القرآن الكريم،انتهج فيها الباحث خطوات إجرائية أساسية بداية من تحديد المدونة ومعالجة فحواها، إلى الدراسة التجريدية للأصوات الطاغية فيها، ثم مقاربة ذلك بعضه ببعض من أجل استنباط الانسجام العجيب بين الصور الفنية الدلالية المبثوثة في المدونة، والإيقاع الصوتي الذي يتناغم في حمل تلك الصورة، معبرا أصدق تعبير عن أدق وأعظم العواطف والمشاعر والأحداث. وبين أيدينا هذه المرة أنموذج لقصة من قصص القرآن الكريم وهي قصة سيدنا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام في سورة محددة وهي سورة مريم عليها السلام.

المداخلة:

سورة مريم عليها السلام: "سورة (مريم) مكية، عدد آياتها ثمانية وتسعون آية، ومحورها يدور حول التوحيد، والإيمان بوجود الله ووحدانيته وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين"[1].

وهي سورة عظيمة، بعظمة محاورها الأساسية، واحتوائها على أغرب وأعجب القصص، من ذلك قصتا زكرياء ومريم عليهما السلام.

فالقصص هو مادة هذه السورة، تبدأ بقصة زكرياء ويحيى، فقصة مريم ومولد عيسى عليهم السلام، كما نجد طرفا من قصة إبراهيم مع أبيه... كما

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

تعقبها إشارات إلى الأنبياء إسحاق ويعقوب وموسى وهارون، واسماعيل وإدريس وآدم ونوح عليهم السلام، ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة[2].

ومما سبق نود أن نخصص دراستنا لقصة بارزة هي: قصة زكرياء وابنه يحيى عليهما السلام.

قصة زكرياء في سورة مريم: تعرضت السورة الكريمة لبعض قصص الأنبياء مبتدئة بقصة نبي الله (زكريا) وولده (يحيى) الذي وهب له على الكبر من امرأة عاقر، إذ استجاب الله دعاءه، ورزقه الغلام النبيه، وتبدأ قصة زكريا من أول السورة، في قوله تعالى: [ذكر رحمة ربك عبده زكريا...]، حتى قوله تعالى: [وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا][3].

يتحدث العلامة سيد قطب عنها، يقول: "... والظل الغالب في جو السورة هو ظل الرحمة والاتصال والمناجاة..." قال تعالى: [قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا] وأيضا قوله تعالى: [وإني خفت الموالي من وراءي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا][4].

وكذلك قوله تعالى: [قال ربي أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا][5].

وقد رافقت هذه المناجاة مشاعر الضعف والحزن والخوف، من خلال وهن زكريا وبلوغه سن الكبر وعقر زوجته.

فزكريا يريد الولد، ولكنه يفتقر الأسباب، لديه الزوجة ولكنها عاقر، وهو يبلغ من الكبر عتيا، وإذا تتبعنا الألفاظ المستعملة للتعبير عن كل هذا نجد ما يأتي:

-وهن: ضعف، يقال وهن، يهن فهو واهن، بمعنى ضعف القوة.

-اشتعل: الاشتعال: انتشار النار، أي انتشر الشيب في رأسه انتشار النار في الهشيم، أي دلالة على الكبر.

-عاقرا: العاقر التي لا تلد لكبر سنها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-عتيا: العتي، النهاية في الكبر واليبس والجفاف، يقال عتا الشيخ كبر وولى، قال الشاعر: "إنما يعذر الوليد ولا يعذر من كان في الزمان عتيا"[6].

"فتبدو سمات النفس أشد وصفا، وأكثر بروزا عند زكريا عليه السلام وهو يناجي ربه متأجج العاطفة، يشكو إلى ربه حزنه وأساه، وخوفه من انقطاع عقبه"[7].

ونجد ذلك في قوله تعالى: [هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء][8] وقوله تعالى: [وزكريا إذ نادى ربه ربّ لاتذرني فردا وأنت خير الوارثين][9] وقوله أيضا [وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا][10].

وفي مقابل دعاء زكريا ترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى في قوله تعالى: [يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا][11] فبشر بيحيى، الذي هو مبعث أمن وفرح واطمئنان لأبيه.

الدراسة الصوتية الدلالية للأصوات: بجردنا للأصوات الواردة في الآيات المتضمنة لقصة زكريا، في سورة مريم، نلاحظ ما يلي:

إن الأصوات الغالبة في القصة هي: الألف، الياء، اللام، الواو، والنون على هذا الترتيب حيث :

- بلغ صوت الألف خمسا وستين مرة موزعا على الآيات الكريمات.
- بلغ صوت الياء خمسين مرة، موزعا على الآيات الكريمات.
- بلغ صوت اللام أربعين مرة موزعا على الآيات الكريمات.
- بلغ صوت الواو اثنين وثلاثين مرة موزعا على الآيات الكريمات.
- بلغ صوت النون واحدا وثلاثين مرة موزعا على الآيات الكريمات.

فما السر في مجيئها على هذا الحال؟ ! وما سبب طغيان كل من الألف والياء والواو والنون واللام دون غيرها من الأصوات؟ !

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وللإجابة على هذا السؤال، يجدر بنا تتبع خصائصها لمعرفة علاقتها فيما بينها من جهة، وعلاقتها مع محتوى الآيات المتضمنة لقصة زكريا عليه السلام (في سورة مريم) من جهة أخرى.

1- **الألف:** يصفها سيبويه بالصوت الهاوي، ونجد ذلك في قوله "... ومنها الهاوي، وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو لأنك قد تضم شفتيك في الواو ويرفع في الياء لسانك قبل الحنك وهي الألف"[12].

ويقول ابن سينا: "وأما (الألف المصوتة) وأختها (الفتحة) فإن مخرجها مع إطلاق الهواء سلسا غير مزاحم"[13].

ونستنتج مما سبق أهم خصائص الألف وصفاته هي:

-إنها هاوية، والهوائي: هو المنسوب إلى الهواء. الخفة والضعف ويوصف بأنه جوفي يخرج من الجوف: عمق.

-الليونة: السهولة أي سهولة في المخرج[14].

-كما أنها من حروف العلة (وهي الألف والواو والياء) "فهذه الأصوات خالصة الصورة النطقية مدا واستطالة"[15].

2- **الياء:** يقول ابن جني: "اعلم أن الياء حرف مجهور يكون في الكلام على ثلاثة أضرب، أصلا وبدلا وزائدا فإذا كان أصلا وقعت فاء وعينا، فالفاء نحو "يسر" و "يعر" والعين نحو "بيت" واللام نحو "ظبي" و"رميت"[16].

ويقول ابن سينا: "والياء المصمتة، فإنها تحدث حيث يحدث السين... ولكن بضغط وحفز للهواء ضعيف لا يبلغ أن يحدث صفيرا"[17].

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس: "... فالياء لأنها تشتمل في النطق على حفيف، يمكن أن تعد صوتا ساكنا، أما إذا نظر إلى موضع اللسان معها فهي أقرب شبها بصوت اللين... لهذا اصطلح المحدثون على تسمية الياء شبه صوت اللين"[18].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالإضافة إلى أن صوت الياء الصائت أو شبه الصائت يتميز بأنه مجهور غاري، فهو يتميز أيضا بخاصية اللين مثله مثل الصوائت.

ويؤكد الدكتور عبد القادر عبد الجليل أن الياء صوت انتقالي له قابلية التحول من صائت طويل إلى صامت حيث يقول: "الياء صوت غاري، انتقالي صامت... يخرج من وسط الحنك، مجهور، يتميز بطبيعته الازدواجية وقابليته التحولية من صائت طويل إلى صامت في تشكيل معالم الدلالة وتبادل المواقع في الوحدة اللغوية..."[19]

وبالرغم من الاختلاف الموجود بين الياء الصامتة أو شبه الصائتة والياء الصائتة إلا أن هناك تداخلاً كبيراً بينهما، مما يجعلنا ندرج الياء والواو الصامتتين ضمن الصوائت أو كما أطلق عليها العلماء، أشباه الصوائت أو أشباه اللين.

يقول الأستاذ أبو بكر الحسيني: "...فالواو والياء تكونان لينتين إذا كانتا ساكنتين سكونا حيا ومفتوح ما قبلها، ولو تأملنا اللين في الواو والياء لوجدنا في طبيعتها قبولا للمطل وامتداد الصوت، فهما يقتربان كثيرا من أصوات المد الثلاثة، الألف والواو والياء من حيث قبولهن امتداد الصوت ،والفارق بينهما أن أصوات المد تتسم بالنطق المفتوح في مقابل الصوامت التي تتسم بالنطق الضيق"[20].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مما سبق نستخلص خصائص الياء:

-صوت مجهور، يقول ابن فارس في جهر: الجيم والهاء والراء أصل واحد وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوه، يقال جهرت بالكلام أعلنت به ورجل جهير الصوت أي عاليه.

-ينطق بارتفاع مقدمة اللسان نحو الغار، وفي الارتفاع علو.

يقول ابن فارس في مادة علو: "العين واللام والحرف المعتدل ياء كان أو واوا أو ألفا، أصل واحد يدل على السمو والارتفاع، لايشذ عنه شيء ومن ذلك العلاء والعلو"[21].

-من خصائصه اللين، ويقول ابن فارس في مادة لين: "اللام والياء والنون كلمة واحدة وهي اللين، ضد الخشونة"[22].

-الياء حرف علة وفي العلة ضعف.

3- **اللام:** يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: "...الراء واللام والنون ذلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان..."[23].

يقول ابن جني: "اللام حرف مجهور يكون أصلا وبدلا زائدا..."[24].

ويقول ابن سينا: "اللام عن صفق اليد على رطوبة أو وقوع شيء فيها دفعة حتى يظهر الهواء إلى أن ينضغط معه ثم، ينصرف وتتبعه رطوبة"[25].

يقول السكاكي: "...ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام..."[26].

ويقول الدكتور محمود السعران في حديثه عن اللام العربية: "يعتمد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا... فاللام العربي صامت مجهور سني منحرف"[27].

مما سبق نلاحظ أنه لا يوجد اختلاف بين القدماء والمحدثين في وصف اللام، فهو مجهور سني، أي ينطق باتصال اللسان باللثة وارتفاع الطبق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن صفات اللام أيضا التفخيم والترقيق، كما يذكر ذلك علماء القراءات في أحكام اللام في اسم الجلالة "الله".

ويقول الدكتور عمار ساسي في هذا الصدد: "والفرق بين اللام المرققة والمفخمة يوجد كما هو معروف في وضع مؤخرة اللسان بالنسبة للاثنين، إذ أنها ترتفع ناحية اللام المفخمة، وتنخفض إلى قاع الفم في حالة اللام المرققة..."[28].

ومما سبق نستنتج خصائص اللام:

-مجهور: ففي الجهر قوة وعلو كما رأينا سابقا.

-ينطق بوضع طرف اللسان في منطقة اللثة العليا ويرتفع الطبق وفي حركة اللسان، بارتفاعه واتصاله باللثة علو وقوة.

-من خصائصه التفخيم، وفي التفخيم قوة كذلك، ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق.

-يحمل معنى القوة، يقول الدكتور عمار ساسي: إن الأفعال المبدوءة بصوت اللام تجنح إلى دلالة كلية مشتركة أراها نابعة من دلالة صوت اللام وهي القوة والعظمة والعلو. ومثال ذلك الأفعال: لعب، لكم، لطم، لام، لزم لقف، لجم، لحم، لعم... الخيط الدلالي الرقيق الذي يربط هذه الأفعال، هو معنى القوة والعلو النابعة من صوت اللام"[29].

4- الواو: يقول ابن جني: "اعلم أن الواو حرف مجهور يكون في الكلام على ثلاثة أضرب، أصلا وبدلا وزائدا..."[30].

ويقول الدكتور عبد القادر عبد الجليل: "صوت الواو انتقالي صامت... يخرج من أقصى اللسان، شفوي، مجهور، ذو طبيعة مزدوجة، له قابلية التحول إلى صوت صائت خالص ممتد..."[31].

نلاحظ أن هناك اتفاقا بين القدماء والمحدثين في أن الواو صوت مجهور.

يقول الدكتور حسام البهنساوي في حديثه عن أشباه الحركات "ويطلق عليها بعض العلماء مصطلح أنصاف الحركات" وهي الأصوات التي يكون في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أثناء النطق بها، مجرى الهواء ضيقا قليلا يسمح بمرور الهواء دون احتكاك ملحوظ، وهذه الأصوات تسمى أشباه الحركات، وهي في اللغة العربية الواو والياء"[32].

فالملاحظ من رأي الدكتور حسام البهنساوي، أن أشباه الحركات والتي تتمثل في الواو والياء، تختلف عن الصوائت الخالصة في طريقة النطق، حيث نجد هناك تضييقا في مجرى الهواء كما يذكر علماء الأصوات.

أما الدكتور إبراهيم أنيس فيطلق على صوت الواو وصوت الياء الصامتين بأشباه أصوات اللين حيث يقول: "هناك صوتان بين الأصوات اللغوية يستحقان دائما أن يعالجا علاجا خاصا لأن موضع اللسان معهما قريب الشبه بموضعه مع أصوات اللين..."[33].

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس "أنه رغم اقترابهما من أصوات اللين إلا أن التجارب الدقيقة أثبتت على أننا نسمع لهما نوعا ضعيفا من الحفيف.

فهذا النوع من الحفيف هو الذي جعل العلماء يضيفون الواو شبه الصائتة إلى الصوت الصامت، حيث أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بأشباه الصوائت يكون أضيق مما هو عليه في النطق بالصوائت"[34].

ويقول الدكتور إبراهيم أنيس في هذا الصدد "...الواو لا فرق بينها وبين الضمة (...) إلا في أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك في حالة النطق بالواو أضيق منه في حالة النطق بالضمة..."[35].

وهدفنا من وضع هذه المقارنة بين الواو شبه الصائتة والواو الصائتة الخالصة أي الحركة، هو لكي نبين أننا باستطاعتنا إدراج شبه الصائت مع الصائت في دراستنا هذه، وهو ما فعلناه مع صوت الياء.

5- النون: يقول ابن جني: "النون حرف مجهور أغن يكون أصلا وبدلا وزائدا. فالأصل يكون فاء وعينا ولاما، فالفاء نحو: نعم والعين نحو بنت وجنح واللام نحو حصن وقطن..."[36].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويقول الدكتور محمود عكاشة "النون صوت أنفي مجهور يتم نطقه بوضع طرف اللسان مرتكزا على اللثة وخفض الطبق (...) ويقع في نطقها تذبذب الأوتار الصوتية..."[37].

يقول الدكتور محمود السعران: "النون العربية صامت مجهور سني أغن ويتم نطقه بوقف الهواء في الفم وقفا تاما بأن يعتمد طرف اللسان على الثايا العليا، بخفض الحنك اللين وبهذا يتمكن الهواء الخارج بسبب الضغط من أن ينفذ عن طريق الأنف..."[38].

ومما سبق نستخلص الخصائص التالية:

-النون حرف مجهور أغن يتميز بصفة الغنة.

-ينطق بارتفاع طرف اللسان إلى الثايا العليا، وفي حركة اللسان هذه علو وارتفاع، إضافة إلى هذه الخصائص هناك خصائص أخرى لصوت النون فمنها الإظهار حيث يذكر علماء التجويد أن من أحكام النون الإظهار.

ويقول الدكتور عمار ساسي: "... للحرف (الصوت) في العربية قيمة بيانية في الألفاظ العربية والدلالة بنفسه مفردا، فحرف الغين هو للدلالة على الاستتار والغيبة ،والخاء والقاف للاصطدام أو الانفصال والسين لليونة والسهولة... والنون للظهور والبروز"[39].

ويؤكد الدكتور عمار ساسي أن صوت النون في العربية يدل على الظهور والبروز، ويضرب لذلك أمثلة عديدة تدل على البروز والظهور، فيذكر نفث نفح، نبت، نزف، نزع، نشأ، نما، نطق، نهض..."[40]. كذلك في الخصائص السابقة تظهر صفة الظهور.

-ففي الجهر إعلان، وفي الإعلان إظهار.

-وفي الغنة، كما يقول الدكتور عمار ساسي "دلالة الظهور والبروز لموسيقى الصوت ونبره"[41].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-كما أن نطق النون يتم باتصال اللسان باللثة ونجد في هذا علو اللسان وفي العلو سمو وارتفاع، ولذلك علاقة بالظهور والبروز.

الدراسة الصوتية الدلالية للآيات: من دراستنا لخصائص الأصوات نلاحظ أن الأصوات الثلاثة الألف والياء والواو، تشترك فيما بينها بأنها، أصوات علة كما أنها تتميز بقبولها للمد والاستطالة واللين، فما علاقة هذا بالمحتوى العام للآيات المتضمنة لقصة زكريا في سورة مريم؟

تسمى حروف مد، وحروف المد تحتاج إلى نفس طويل.

تسمى حروفا جوفية: وتحمل دلالة العمق.

ومن هنا يمكننا القول إن طغيان الأصوات الثلاثة (الألف، الياء والواو) متماشية مع معاني الآيات الكريمة من مظاهر الحزن والخوف والضعف، حيث رسمت لنا صدق وعمق دعاء زكريا -عليه السلام- ومناجاته وخاصة مع الأصوات الثلاثة، فإظهار ذلك الضعف جاء متوافقا مع الياء المشددة التي يظهر زكريا من خلالها معاناته أثناء مناجاته، وما زاد هذه المناجاة ليونة ونعومة الألف اللينة المطلقة بعد الياء المشددة التي تحتاج إلى نفس أطول، وهو ما يناسب حال زكريا -عليه السلام- حين كان يدعو ربه رغبة في الاستجابة.

يقول الدكتور صبحي صالح: "إن هذا النغم الصاعد إلى الله من خلال هذه المناجاة ليشير بكل لفظة صورة مرتعا للخيال فسيحا"[42].

ونلاحظ ذلك في قوله تعالى: [إذ نادى ربه نداء خفيا] وقوله: [قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا]. وقوله أيضا [وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا][43].

فنجد الكلمات التالية وما تحويه من صوت الياء والألف تدل على الضعف ومن ذلك، خفيًّا، شيبا (وهو دلالة على الكبر) شقيّا، عتيّا، عاقرا.

كذلك نجد الواو في وهن، وهي لفظة تحمل دلالات الضعف والكبر يقول ابن فارس في وهن: "الواو والهاء والنون، كلمتان تدل إحداهما على ضعف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأخرى على زمان الأولى: وهن الشيء يهن وهنا: ضعف، والكلمة الثانية الوهن والموهن، ساعة تمضي من الليل..."[44].

والمفردات التالية التي تحمل صوت الواو، لها دلالات تقترب من الضعف ومثل ذلك:

-هور: "..يدل على تساقط شيء، تهور البناء، انهدم".

-هوى: "..يدل على خلو وسقوط"[45].

-وجع: "الواو والجيم والعين، كلمة واحدة هي الوجع، اسم يجمع المرض كله".

-وقع: "..يدل على سقوط شيء يقال وقع الشيء وقوعا فهو واقع..."[46].

-ونى: "..يدل على ضعف، يقال ونى يني ونيا، والواني الضعيف"[47]

فزكريا -عليه السلام- يناجي ربه وهو يصور حالة كبره ووهنه وضعفه وأسباب خوفه ومدى حاجته للولد. قال سيد قطب: "إنه يناجي ربه بعيدا عن عيون الناس، بعيدا عن أسماعهم في عزلة يخلص فيها لربه، ويكشف عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال بلا واسطة"[48]. "وإن ربه يسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البث ويحتاج إلى الشكوى..."[49].

وترتسم لنا صورة زكريا عليه السلام وهو يدعو ربه ويناجيه ويعرض له أسباب ضعفه، من خلال فواصل الآيات المتضمنة لقصة زكريا عليه السلام في سورة مريم، من الياء المشددة يليها ألف المد واللين. "فيتمثل للملتقي هذا النبي وهو يرتل هذا الدعاء، شيخا وقورا انحنى ظهره لثقل السنين وابيض شعره... وخلا فراشه من البنين والبنات، فتوجه إلى ربه وهو قائم يصلي في المحراب بدعاء خفي"[50].

ومن هنا، بإمكاننا القول بأن التوافق الصوتي للآيات يتماشى والتوافق المعنوي والدلالي داخل نفس زكريا المنفعلة الضعيفة "ونحس بصدى تلك النفس

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الضعيفة ينبعث من الياء المشددة المنونة التي كان يحط عليها زكريا عليه السلام حمولة نفسه، والتي صارت عند الوقف ألفا لينة[51]" ونجد ذلك في لفظة (خفيًّا، شقيًّا، وليًّا، رضيًّا...) فتضافرت معها لتزيد الدعاء ليونة ونعومة ورخاء يقول سيد قطب: "وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال"[52] وفي الرحمة ليونة ورخاوة، وقد بدأت قصة زكريا في سورة مريم بقوله تعالى: [ذكر رحمة ربك عبده زكريا][53].

ومما سبق، يمكن أن نلخص إلى أن ما تضمنته آيات قصة زكريا عليه السلام من مناجاة، وما رافق ذلك من عرض لأسباب الضعف والكبر والخوف والرغبة الشديدة في الإنجاب، وما مدى حاجته عليه السلام للولد الذي سيكون له مبعث أمن واطمئنان وفرح، ذلك كله عبرت عنه حروف العلة، التي تتميز بمدها ولينها وضعفها.

2- **اللام والنون:** رأينا سابقا ما يتميز به صوت النون، من جهر وارتفاع وعلو وإظهار وبروز، فهو يشترك مع صوت اللام في القوة والجهر والعلو. كلاهما ينطقان بارتكاز اللسان على اللثة.

ومن هنا يمكننا القول إن اللام والنون فيهما من القوة والعلو ما جعل الآيات المتضمنة لقصة زكريا عليه السلام في سورة مريم، مسرحا لمظاهر القوة والبروز، بالرغم من طغيان معاني الخوف والضعف والحزن. فما علاقة ذلك بمعنى القصة في سورة مريم؟

بالرغم من وجود دلالات الضعف والحزن والخوف في الآيات الكريمة إلا أنها كذلك تتضمن معاني القوة والاستعلاء، والذي يناسب الظهور والبروز ومن ذلك (نادى، إني، وهن، مني، أكن، كانت، لدنك، نبشرك، نجعل، أتيناه حنانا، لدنا) واللام (قال، اشتعل، لدنك، وليا، أجعله، بغلام، لي، بلغت خلقتك، لدنا).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يذكر المفسرون أن الحكمة من القصص، هي إثبات وحدانية الله وقدرته على كل شيء، فهو الذي رزق زكريا عليه السلام في كبر سنه وعقر زوجته ولدا صالحا، فإنه عز وجل قادر على أن يصلح حال العاقر، ويجعل في وهن الكبر قوة، فجاء كل من صوت اللام والنون لما في اللام من قوة وعظمة والنون لما فيه من قوة البروز والظهور متناسبا مع المحور الأساسي للقصة، وهو إثبات وحدانية الله وقدرته وعظمته.

إن قوة زكريا عليه السلام وصبره أمام الابتلاء وثقته بربه أن يرزقه ولدا بالرغم من فقده أسباب الإنجاب، لعقر زوجته ووهن وفناء عظمه وجهده، ونجد هذا مثلا في قوله تعالى: [قال ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربّ شقيا][54]، فاستجيب دعاء زكريا عليه السلام ولم يردَّ الله رجاءه، في قوله تعالى: [يا زكريا إنّا نبشرّك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا][55].

وفي مناجاة زكريا عليه السلام لربه قوة وظهور وبروز، فقد عبرت الياء المشددة المنتهية بالألف اللينة المتصاعدة نحو الأعلى على أن هناك قوة حزن وشدة تألم، ورغبة كبيرة في تحقيق الاستجابة من الله.

ومن هنا نقول إن إظهار هذا الألم كان بالمناجاة.

ومما سبق، برأينا، أنه بالرغم من أن (الألف والياء والواو) بما حملت من دلالات الضعف والحزن والخوف والمرض في الآيات الكريمة، إلا أننا نلاحظ خيطا دلاليا يمتد ويشترك مع صوتي اللام والنون وما حملته من دلالات القوة والعلو والظهور والبروز في القصة، فالله سبحانه وتعالى، بين أسباب الضعف ليثبت عظمته وقدرته على كل شيء فلو فرضنا أن زكريا عليه السلام رجل قوي، وزوجته تنجب، لما كانت هناك أية غرابة في القصة.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا الضعف لزكريا عليه السلام لكي يكون وليده إثبات قدرته وقوته فوق عباده.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كذلك تشترك حروف العلة الثلاثة مع النون واللام، في أن هذا الضعف والألم والخوف وشدة الحزن هو الذي ولّد قوة الصبر عند زكريا عليه السلام وما عبرت عنه مناجاته عليه الصلاة والسلام.

خلاصة القول: بعد كل ما سبق، وإن كنا لا نجزم برأينا هذا بدلالة الصوت دلالة صارخة صريحة، فإننا نخلص إلى جمع بعض النقاط التي تبينت لنا من خلال هذه المحاولة التي أردنا بها الكشف عن الدلالة الصوتية وعلاقتها بالمعنى في القرآن الكريم، نجمعها في النقاط التالية:

1- طغيان أصوات محددة وواضحة بعينها، وظاهرة بصورة جلية كما هو الحال ما رأيناه في قصة زكريا عليه السلام سالفا.

2- انتماء الأصوات الطاغية إلى مجموعة بعينها، واشتراكها في خاصية معينة مثل ما رأيناه في طغيان أصوات العلة الثلاثة، واشتراكها في خاصية اللين والضعف، واشتراك صوتي النون واللام في القوة والعظمة والإظهار، وفي الإظهار قوة، وقلنا إنه بالرغم من أن هناك تباعداً بين أصوات العلة (الثلاثة) وبين اللام والنون، في أن الأولى تحمل دلالات الضعف والثانية تحمل دلالات القوة، إلا أن هناك خيطاً رقيقاً يجمع بين هذه الأصوات وهو أن القوة وليدة الضعف، ولولا هذا الابتلاء لما ظهرت قوة صبر زكريا عليه السلام، وهذا الابتلاء كذلك وما يحمله من (حزن ومرض ووهن) هو دليل على عظمة الله وقدرته، وما جاء من غرابة للقصص في القرآن الكريم هو إثبات لوحدانية الله وقدرته.

3- تناسب وقع وقرع الأصوات مع محتوى القصة وطبيعة الأحداث والمواقف التي واجهها زكريا عليه السلام، وخاصة ما رأيناه في فواصل الآيات التي جاءت على نسق واحد، حيث ترتسم لنا تلك النفس المنفعلة في بداية نفسها ثم تتهادى إلى أن تبلغ آخر الفاصلة.

يقول الأستاذ طول محمد: "والسرد القصصي في القرآن عبر بأسلوب عن الأحداث ومشاعر الشخصيات بطرق تتناسب فيها الألفاظ بمدلولاتها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والأصوات بمعانيها، والعبارات بمفاهيمها، حتى أن المتلقي يكاد يفقه المعنى المراد بمجرد سماعه للأصوات، لما تتميز به من تناسب بين جرسها ومعناها"[56].

فقد عبرت الأصوات اللينة التي تتميز بالمد عن حال زكريا وهو شيخ كبير يشكو وهن العظم وذهاب قوته ومناجاة ربه بلهفة، ولا عجب في ذلك إذا كان القرآن نزل في أمة تسمع اللغة أكثر مما تكتبها وتقرأها، ولذلك روعي فيه من سمات الفن المسموع، ما يبهر حين يلقي إليه المتلقي السمع..."[57]

ويرى الشيخ عبد العظيم الزرقاني أن في القرآن الكريم اتساقاً وائتلافاً في حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته (...) اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، ويقول: "إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب..."[58].

فما قمنا به من دراستنا التطبيقية كان جزئيا ومع ذلك توصلنا إلى بعض النتائج، حيث إن الصوت في النص القرآني يحمل دلالة تصب مباشرة في المعنى تتناسب والجو الطاغي على القصة، وقولنا بدلالة الصوت اللغوي في القرآن لا يلغي دور الكلمة والتركيب فالكل متكامل ليؤدي وظيفته الإبلاغية على أكمل وجه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، قراءة حفص، دار الفجر الإسلامي، 1404 هـ، ط 6.

1.أنيس إبراهيم، الأصوات اللغوية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1931، ط1 مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، 1975، دط.

2. ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق حسن الهنداوي، القلم، دمشق، 1985، ط1.

3. ابن سينا، أبو علي، أسباب حدوث الحروف، راجعه وقدم له، طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، دط.

4. سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق د/ عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، 1982،ط2.

5. أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ط1.

6. عمار ساسي، اللسان العربي وقضايا العصر، رؤية علمية (الفهم، المنهج الخصائص، التعليم)، دار المعارف، بوفاريك، البليدة، د ت، د ط.

7.عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، دار أرمنة، عمان، 1998، ط1.

8. عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب المصري القاهرة، بيروت، د ت، د ط.

9. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن، بيروت، 1981، ط4، ج2

10. محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، دط.

11. محمود عكاشة، أصوات اللغة،دراسة في الأصوات ومخارجها وصفاتها وتماثلها، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، 2005، ط1.

مجلات ومعاجم وتفاسير:

12. الصوتيات بين التراث والحداثة (الملتقى الوطني الثاني)، البليدة، 2004.

13. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1985، ط11 ج4 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

14. ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979، دط
15. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، معجم كتاب العين، (مقدمة) تحقيق د/مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، 1980، ج1.
16. معجم الوسيط، هيئة الأبحاث والترجمة، المشرف العام راتب أحمد بن قبيعة دار راتب، بيروت، 1997، ط1.

الهوامش:

1- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن، بيروت، 1981، ط4، ج2، ص210.
2- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1985، ط11، ج4 ص2299.
3- الآيات 2-15 من سورة مريم.
4 - الآيتان (4-5) من سورة مريم.
5 - الآية (8) من سورة مريم.
6 - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ص211.
7 - طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت دط، ص206.
8 - الآية 38، سورة آل عمران.
9- الآية 89، سورة الأنبياء.
10 - الآية05، سورة مريم.
11 - الآية 07، سورة مريم.
12 - سيبويه، الكتاب، ج4، ص 435-436.
13 - ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص21.
14 - معجم الوسيط، هيئة الأبحاث والترجمة، المشرف العام راتب أحمد بن قبيعة، دار راتب بيروت، 1997، ط1، ص767.
15 - عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، دار أزمنة، عمان، 1998، ط1، ص114.
16 - ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج2، ص729.
17- ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص21.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

18 – ابراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص40.

19– عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، ص95.

20 – أبو بكر حسيني، الصوتيات بين التراث والحداثة (الملتقى الوطني الثاني)، البليدة، 2004 ص24–25.

21 – ابن فارس، مقاييس اللغة، ج4، ص112–113.

22 – ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص225.

23 – الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ج1، ص42.

24 – ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص321.

25 – ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص27.

26 – السكاكي، مفتاح العلوم، ص45.

27 – محمود السعران، علم اللغة مقدمة القارئ، ص169–170.

28 – عمار ساسي، اللسان العربي وقضايا العصر، رؤية علمية (الفهم، المنهج، الخصائص التعليم)، دار المعارف، بوفاريك، البليدة، د ت، د ط، ص125.

29 – المرجع السابق، ص128.

30 – ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج2، ص573.

31 – عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، ص194.

32 – حسام البهنساوي، علم الأصوات، ص55.

33 – إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص40.

34 – المرجع السابق، ص 40–41.

35 – المرجع السابق، ص40.

36 – ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج2، ص435.

37 – محمود عكاشة، أصوات اللغة، ص71.

38 – محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ، ص169.

39 – عمار ساسي، الصوتيات بين التراث والحداثة [الملتقى الوطني الثاني]، البليدة، 2004 ص154.

40 – المرجع السابق، ص155 (بتصرف).

41 – المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

42 – طول محمد، البنية السردية في القصص القرآني، ص206 نقلا عن صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، 1927، ط7، ص338.

43 – الآية 8، من سورة مريم .

44 – ابن فارس، مقاييس اللغة، ج6، ص149–150.

45 – المرجع السابق، ج6، ص18.

46 – المرجع السابق، ص15.

47 – المرجع السابق، ص133–134.

48 – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2302.

49 – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2302.

50 – محمد طول، البنية السردية في القصص القرآني، ص206–207.

51 – المرجع السابق، ص207.

52 – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4، ص2300.

53 – الآية، سورة مريم.

54 – الآية 04، سورة مريم.

55 – الآية 07، سورة مريم.

56 – طول محمد، البنية السردية للقصص القرآن، ص208.

57 – طول محمد، البنية السردية للقصص القرآني، ص208.

58 – عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب المصري، القاهرة بيروت، د ت، د ط، ص309–310.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com